لغة الجسد بين التأصيل والمعاصرة

المؤلف: د. إسماعيل صالح الحسن المصري

المقدّمة:

تعدّدت الآراء واختلف العلماء حول مفهوم علم الدلالة أو السيمياء، حتى تبلور هذا العلم على أنه "علم تفسير معاني الدلالات والرموز والإشارات وغيرها..."[1]، فقد استُدل- منذ القدم- بالإشارة للدلالة على أعراض المرض، ومن هنا شكّل علم السيمياء درساً من دروس الاتصال، ولعل الإشارة عنصر مهم في عملية التواصل، فالتواصل قديم قدم الإنسانية، ولم يقتصر على اللغة المنطوقة؛ إذ "يبدأ الاتصال الآدمي منذ الخليقة الأولى للفرد في رحم أمه عن طريق الحبل السريّ، ينقل رغباته ويستقبل إجاباتها، إلى أن يخرج إلى عالم الدنيا بكل مقوماتها، فيتحول اتصاله الفطري الغريزي إلى اتصال توجهي ثم إلى اتصال إرادي"[2].

وقد اعترف العلماء بأنّ الإشارة شيء مادي يُظهر شيئاً آخر ذهنياً، إلاّ أنهم اختلفوا في وجهات نظرهم، فقد يرى فيرديناند دي سوسير إنّ الإشارة مكوّنة من وجهين: الأوّل ماديّ محسوس، والثّاني ذهنيّ معنويّ غير محسوس، في حين يرى أصحاب الاتّجاه الإنكليزيّ (رتشاردز، وواوجدن)، إنّها تقوم على: المعنى والاسم والشّيء[3].

أهمية البحث وأهدافه:

لم يخلُ تراثنا العربي من مبادئ أولية لهذا العلم، ومن هنا تبرز الأهمية العظمى له، فإذا ما قرأت كتب علماء العربية القدامى؛ فإنك ستجد الأبجدية الأولى الذي انطلق منها علماء اللغة في العصر الحديث؛ لوضع أسس هذا العلم ومبادئه المتطورة، فعملية التواصل البشري تحتاج إلى لغة الجسد؛ لتحقّق غايتها، وقد بات موضوعاً من الموضوعات العمليّة، فالإنسان في كلّ لحظة من لحظات حياته اليوميّة يشرك أعضاء جسده، بل أحياناً يخاطب بها، فلا بدّ أن يكون على دراية عالية في استخدام حركاته الجسدية، وتتلخّص أهداف هذا البحث بالآتي:

1- تناول موضوع لغة الجسد بوصفه بحثاً متفرّداً برأسه؛ لقلّة الأبحاث المختصّة به.

2- توضيح قوّة تأثير لغة الجسد في الآخرين.

منهجيّة البحث:

لقد تتبّعت المنهج الوصفيّ الّذي يتناسب مع هذه الدّراسة؛ إذ يسمح لي بتأصيل علم الحركة الجسديّة وتوصيف مبادئه، ووصف الظواهر اللّغويّة للوصول إلى دلالات حركات الجسد وإشاراته، وإبانة ما لها من أهميّة بالغة في عمليّة التّواصل البشريّ، واستقراء النّتائج الّتي توصّل إليها البحث.

تجلّيات لغة الجسد في التّراث العربيّ:

يحسب بعض الباحثين أن لغة الجسد من العلوم الحديثة الّتي طرقت بوّابة المعرفة في سبعينيّات القرن الماضي، حين قالت الباحثة **ألن بيز**: "إنّه ليبدو أمراً غير معقول على مدى مليون أو أكثر من السّنين على تطوّر الإنسان أن لا تخضع الاتّصالات الصّامتة لبحث أو دراسة جديّة على أيّ مستوى حتى عام 1960، وأنَّ النّاس أصبحوا يدركون وجود قواعد لهذه اللّغة فقط في عام1970 عندما نشر"**جوليوس فاست**" كتاباً عن لغة الجسد، وقد كان هذا ملخصاً لما قام به علماء السّلوك من دراسات على الاتّصالات الصّامتة حتّى ذلك التّاريخ وحتّى اليوم"[4].

ولكنّ الباحث المدّقق في علم التواصل، يعرف أنّ للعرب أثراً كبيراً في وضع ملامح هذا العلم وتطوّر مبادئه في تراثهم الماضي، لكنّه عُرِفَ عندهم بـ: علم الفِراسة[5]، وخاصّة بعد أن قرؤوا كُتب الفيلسوف اليونانيّ الشّهير"أرسطو"[6]، وقد عُرِفَ علم الفِراسة عند علماء العرب بأنّه "الاستدلال بالأحوال الظّاهرة في الجسد على الأحوال الباطنة."[7]، وقيل: "هو علمٌ من العلوم الطّبيعيّة تعرف به أخلاق النّاس الباطنة من النّظر إلى أحوالهم الظّاهرة، كالألوان، والأشكال، والأعضاء"[8].

ولقد كان الجاحظ من السّباقين في وضع أسس هذا العلم، فقد لفت الانتباه من خلال تصوّره لوظيفة اللّغة بوصفها نظاماً من أنظمة التّواصل، وعرض الجاحظ في كتابيه الحيوان والبيان لوسائل البيان أو التّواصل وحددها في خمس وسائل قائلاً:[9] "وجميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أوّلها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال الّتي تسمّى نِصبه بكسر النّون، والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف"[10]، وهي الحال الناطقة بغير اللّفظ، والمشيرة بغير اليد"[11].

وإن لم يعرّف الجاحظ ظاهرة الإشارات الجسديّة، لكنّه جعلها وسيلة من وسائل التّواصل فقال: "والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها"[12]، ويقول في موضع آخر "فأمَّا الإشارة فباليد وبالرّأس وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف"[13].

وقال في كتاب الحيوان: "فأمَّا الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب، وكسر الأجفان وليّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر..."[14].

ولم يكن الجاحظ وحيداً ممّن أشار لهذه الظّاهرة، فهذا ابن جنيّ اللّغويّ يستعمل مصطلح حكاية الحال للتّعبير عن الإشارة الجسديَّة بقوله: "... أوّلاً تعلم أنّ الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب صاحبه وينعم تصويره له في نفسه استعطف ليقبل عليه فيقول له: يا فلان أين أنت؟ أرني وجهك؟ أقبلْ عليّ أحدثك فلو كان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين مجزئاً عنه لما تكلّف القائل ولا تكلّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه، وعلى ذلك قال حيص بيص:

العين تبدي الّتي في نفس صاحبها ... من الشناءة أو حبّ إذا كانا
إنّ البغيض له عين تكشّفه ... لا تستطيع لما في القلب كتمانا
فالعين تنطق والأفواه صامتة ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا[15]

كما استشهد ابن جنيّ على أهميّة الإشارة في بيان حال المتكلّم في موضع آخر بحركة جسديّة يعيد بها المتكلّم، وعلى ذلك قالوا: "ربّ إشارة أبلغ من عبارة"، وقيل:"رب حال أفصح من لسان"، كقولهم: "لسان الحال أبين من لسان المقال"[16].

ونجد ابن رشيق القيروانيّ في كتابه (العمدة)، يخصّص باباً يحمل عنوان الإشارة، وينقل عن الجاحظ قوله: "ومبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصّوت، وهذا باب تتقدّم فيه الإشارة الصّوت، كما ينقل قوله إن حسن الإشارة باليد والرّأس من تمام حسن البيان باللّسان."[17] أمّا الثّعالبي فقد تحدّث عن التّواصل غير اللّفظيّ، فكان معجمه مليئاً بالهيئات الجسديّة العامّة، وحركات الجوارح ودلالاتها كهيئة المشي، وحركة اليد وأشكالها ودلالاتها، ودرجات بعض الحركات والهيئات.

فقد صرّح الثّعالبيّ بعنواناتٍ عديدة تدلّ على هيئات وحركات جسديّة مثلاً في تفصيل كيفيَّة النّظر وهيئاته في اختلاف أحواله[18]، فأورد ألفاظاً تعبّر عن صورة جسديّة، كالعين الكارهة، والعين المعجبة، والعين اللّوّامة، والعين المتفحّصة، والعين المحدّقة، وغيرها... وأورد فصلاً في "تفصيل ضروب مشي الإنسان وعدوه"[19]، حيث تنوّعت مصطلحاته الّتي استخدمها بحسب عمر صاحب المشية، أو حالته الصّحيّة، أو الاجتماعيّة، أو النّفسيّة، فمثلاً قال: "قرصعت قرصعة وهي مشية قبيحة"[20]، وعرض لفصول عديدة، فوسمها في "تفصيل تحريكات مختلفة"[21]، وفصل "تقسيم الإشارات"[22]، وفصل "في تفصيل حركات اليد وأشكال وضعها وترتيبها"[23]، وفصل "ضروب ضرب الأعضاء"[24] وغيرها...

ومما سبق تظهر الأبحاث أنّ هناك علاقة مباشرة بين المنزلة الاجتماعيّة والنّفوذ أو الهيبة الّتي يتمتّع بها الشّخص وصنف المفردات اللّغويّة الّتي يستخدمها وبمعنى آخر كلّما كان الشّخص يحتلّ مرتبة اجتماعيّة أو إداريّة أعلى في السّلم الاجتماعيّ كانت مقدرته على التّعبير بوساطة الكلمات والجمل أعلى.

"وقد عكست الأبحاث المتعلّقة بالصّمتيات علاقة متبادلة بين تحكّم الشّخص بالكلمة المحكيّة وكميّة الإيماء الّتي يستخدمها لإيصال رسالته... فالشّخص المتربّع في أعلى الهرم الاجتماعيّ أو الإداريّ يستطيع أن يستعمل ما لديه من كلمات لإيصال ما يبغي من معانٍ، بينما الشّخص الأقلّ ثقافة أو مهارة سوف يعتمد أكثر على الإيماءات دون الكلمات لتحقيق ما يصبو إليه من معانٍ"[25].

وهذا يدل على ارتباط المرتبة الاجتماعية للإنسان بحركته الجسدية، فكلما ارتقى بهذه المكانة أراد أن يخفّف من حركاته، لكنّ الجسد يبقى موجوداً وذا تأثير على صاحبه، "فالجسد واقعة اجتماعيّة، ومن ثم فهو واقعة دالّة. فهو يدلّ باعتباره موضوعاً، ويدلّ باعتباره حجماً إنسانيّاً، ويدلّ باعتباره شكلاً. إنّه علامة، وككلّ العلامات، لا يدرك إلاّ من خلال استعمالاته. وكلّ استعمال يحيل على نسق، وكلّ نسق يحيل على دلالة مثبتة في سجل الذّات وسجل الجسد وسجل الأشياء. إنّ أيّة محاولة لفهم هذه الدّلالات والإمساك بها يمرّ عبر تحديد مسبق لمجموع النّصوص الّتي يتحرّك ضمنها ومعها وضدّها"[26].

فالجسد قديم قدم الإنسانية، والتاريخ العربي دوّن في سجلاّته تجليات واضحة لمعاني هذا الجسد، ودلالات معبّرة كالحركات الإراديّة واللاّإراديّة، فقد احتلّ مكانة عظيمة في دواوين شعراء العرب، وكتبهم التّراثيّة القديمة، فكانوا السّباقين إلى التّلميح بمبادئه وأبجديّته وأسسه، لكنّ الدّراسات الغربيّة الحديثة جعلته علماً منظّماً له قواعد وبيانات واضحة.

لغة الجسد عند المحدثين:

تتعدّد وسائل الاتّصال بين الشّعوب بتعدّد لغاتهم وتنوّعها، فكلّ إنسان يكتسب لغة قومه ليتواصل معهم، ويفهم عاداتهم وتقاليدهم، وتعدّ لغة الجسد المتنوّعة ذات الدّلالات المختلفة من أبرز وسائل الاتّصال، شأنها شأن اللّغة؛ لذلك "فطن اللّغويون إلى أنَّ عمليّة التّواصل لا تعتمد فقط على اللّغة بصفتها الأداة الرّئيسة لهذا التّواصل، بل تعتمد أيضاً على ما يصاحبها من نغمات صوت المتكلّم " voice tones" وحركاته الجسديّة "Body motions" فاهتمّوا بدراسة هذه المصاحبات اللّغويَّة "paralinguisties" حيث يعني هذا المصطلح المظاهر المصاحبة للإشارات الجسديَّة مثل هيئة الجسد في الوقوف والقعود والمشي، والتّعبيرات الّتي تطرأ على البشرة مثل الشّحوب والاصفرار والاحمرار"[27].

وهذا الاهتمام فتح بوّابة الحوار والبحث من أجل ترسيخ مبادئ أوليّة لتعريف مثل هذا العلم الحديث، علم الحركة الجسديَّة (الكينات Kinetics)، "فإذا كانت اللّغة تعدّ الوسيلة الاتّصاليَّة المهيمنة على حياة أفراد المجتمع، إلاّ أنَّها ليست الوسيلة الوحيدة من وجهة نظر علم العلامات لتحقيق التّواصل؛ لأنّ الإنسان يمتلك وسائل أخرى غير لغويَّة أو لفظيَّة تقوم بوظيفة التّواصل، مثل اللّغة الّتي تعتبر * نظاماً من العلامات الّتي تعبّر عن أفكار كما حدّدها سوسير، وتتمثّل هذه الوسائل في وجود أنظمة من العلامات غير اللّفظيَّة تخضع –مثل اللّغة– لاتّفاق وتواضع الجماعة conventionality"[28].

وإذا كان الصّوت المنطوق هو لغة تواصل متّفق عليها بحسب كل جماعة أو مجموعة بشريّة ضمن مجتمع معيّن، ويمكن أن نخفي به مشاعرنا وأحاسيسنا ونكذب به على الآخرين، "فإن لغة الإشارات الجسديَّة تكشف دائماً عمّا نخفيه، بل وكثيراً ما تفضحنا أمام الآخرين"[29]، فهي لغة لا تعرف الكذب والنفاق؛ لأنها تمثل المرآة النّقية الّتي تكشف وبشكل مباشر الأسرار والمشاعر الّذي يحاول الإنسان أن يخفيها، فكثيراً ما يتكلّم الجسد، واللّسان صامت دون أن يشعر صاحبه بما ينقل إلى النّاس من ردّات فعله تجاه أمر معين.

"واستناداً إلى المعرفة السيميولوجيَّة الّتي تبيح لنا التّعامل مع الجسد باعتباره نسقاً تواصليّاً له امتدادات في كلّ مناحي الحياة العاطفيَّة والعقليَّة والمخياليّة، فالجسد ليس كتلة كليَّة، والرّوح ليست طاقة مبهمة توجد خارج الأجهزة الّتي تكشف عن مناحيها. إنّ الأمر يتعلّق بجهاز يشتغل كسند للعيش والتّواصل وإنتاج الدّلالات، إنّه لغة أو هو لغات لها قوانينها ومنطقها وأسرارها أيضاً"[30]، وهذا يعني "أنّ جسد الإنسان بهذا

المفهوم يمتلك لغة أخرى غير لفظيَّة non-verbal language ألفاظها الحركات والإشارات والإيماءات والهيئات والعوارض الّتي تعبّر وتفصح عن مشاعر الإنسان وانفعالاته وأفكاره، إنَّ هذا الدّور الهام* لجسد الإنسان لا يظهر فقط من خلال الكلام speech، ولكن يظهر واضحاً أيضاً في متن اللّغة language ومن خلال عشرات الأسماء والأفعال والتّعبيرات الاصطلاحيَّة idiomatic expressions المشتقة من أعضاء الجسد"[31]، فالتّواصل الإنسانيّ لا يتوقف على الكلام المنطوق فحسب؛ بل على لغة جسده، وهذا يعني "أنّ الجسد خزّان للدّلالات، فهو يدلُّ من خلال حركته ويدلُّ من خلال سكونه. إنَّ سكون الجسد ليس سكوناً ماديّاً،[...] وإنّما هو أصل الدّلالات المتولّدة عن الإيماءات"[32]، فالتّواصل بين النّاس لا يقتصر على الكلام المنطوق أو على الحركات المقصودة في بعض المواقف كالابتسامة المجاملة للمتحدّث؛ بل هناك حركات وسكنات جسديَّة لا نشعر بها، يفضح الجسد من خلالها مطلبنا، ويكشف مشاعرنا دون أن نرغب بذلك.

فالصّورة الشّكليّة الّتي تُؤدى بعضو أو أكثر من الجسد تومئ وتشير إلى المطلب الذي يريده الإنسان، فالطفل الرضيع لا يستطيع أن يعبّر عن رغباته بالكلمات؛ لذلك فإن أشكال جسده تدلّ على مطلبه، وهذا بفضل الأفعال البيولوجية المشتركة عند جميع الأطفال دون أي حسبان لانتمائهم اللّغوي.

"فلغة الجسد هي مجموع إجمالي الإشارات الّتي تصدر عنا وتساعد الآخرين على اتّخاذ هذه القرارات"[33]، "وهي أبلغ وأقوى من كلّ اللّغات الشّفهيَّة، وقد تكون ذات تأثير فعَّال عندما نلمّح إلى شيء نودّه أو نرغب به كثيراً،[...] لذلك تكوّن دراسة شاملة للتّعاطي والاتّصال غير الشّفهي بين الأشخاص، والّتي تحدث أو تترجم باستخدام الحركات والوضعيّات والمسافات، والتّعاطي يشمل الكلمات، نبرة الصّوت وحركات الجسد"[34]، لذلك يجب ألّا يخفى علينا أن الجزء الأهم في أي رسالة نريد إيصالها إلى شخص ما، هي لغة جسدنا؛ إذ تساند الكلمات على فهم المراد والمطلوب من خلال تعابير الوجه وحركات اليدين والقدمين و...

وإذا كان "دي سوسير" قد أوجد وجهين للكلمة، الأول ماديّ وهو الدّال، والثّاني معنويّ وهو المدلول أو الصّورة الذّهنيّة، فإنّ الحركة الجسديّة تتجسّد في دال و مدلول أيضاً، أمّا الدّال فهو الصّورة الّتي تشكلّها كُلّ حركة من حركات الجسد، كحركة اليد، أو حركة الوجه، أو حركة العين...، أمّا المدلول فهو الصّورة الذّهنيّة المعنويّة الّتي تسترفد دلالتها من الدّال الحركيّ.

وكما أنَّ الكلمة تدلُّ أحياناً على معنى أو أكثر، فيما تدخلُ في إطار ظاهرة المشترك اللّفظيّ، فإنّ الحركة الجسديّة تدلّ على معنى أو أكثر أيضاً، وتدخل في إطار ظاهرة المشترك الحركيّ، فحركة الرّأس– مثلاً– توحي بأكثر من معنى، ومن ذلك "الرّفض"، أو "القبول"، أو "الطّرب"، أو "التّعجّب"، أو "الإنكار".

"وكما أنَّ الكلام يرتبط بالرّمز الخطيّ، فهو كذلك يرتبط بالحركة الجسديَّة ولا يتمّ بمعزل عنها، فنحن حين نتكلّم لا نقف أو نجلس كالأصنام بلا حراك، وإنّما تصحب كلامنا حركات قد تقتصر على اليدين أو على أعضاء الوجه، كأنْ نرفع الحاجبين حين نتكلّم بحماس، وتتحرّك أيدينا في توافق مع الكلمات الّتي نؤكّد عليها، وقد نستعمل حركة يفهمها متحدّثنا دون كلام؛ لأنّها جزء من ثقافتنا وتعلّمنا أداءها ودلالتها في الوقت نفسه الّذي تعلّمنا فيه اللّغة، وذلك مثل الحركة الجسديَّة الّتي تقول بها: انتظر قليلاً، أو حين نقلّب الكفّ ونعني بذلك السّؤال: (مَنْ؟) أو (أين؟)، أو نضرب كفاً بكفٍ للتّعبير عن التّعجّب أو الاستياء، وهذا النّظام المرئيّ الّذي يصاحب النّظام الصّوتيّ والسّمعيّ (أيّ اللّغة) هو ما أصبح الآن يعرف بعلم الحركة الجسديَّة أو ((الكينات Kinesics))"[35].

فالجسد يحتلّ مكانة مهمّة في حياتنا اليوميّة، إنّه المبدأ المنظّم للفعل، وهو الهويّة الّتي بها نعرف وندرك ونصنّف، "وإنَّ تشكّل الجسد كدال متكامل ومكتف بذاته وقادر على توليد سلسلة لا متناهية من الدّلالات انطلاقاً من تنوّع الأنماط الصّانعة لكينونته، هو الخطوة الأولى نحو انفصاله عن الأشياء والغوص عميقاً في الحقل الثّقافي. فالجسد ليس معطى سابقاً على العين الّتي تدركه وتصفه كجغرافيا ممتدّة في الزّمنيّة الإنسانيَّة"[36]. وإنما هو جزء مهم مساعد في دعم اللفظة (اللغة المنطوقة) في تحقيق التواصل والتفاهم بين الناس.

فالتّعرّف على لغة الجسد، أو ما كان يُعرف تقليديّاً (الإشارة) يقوم على مبدأ التّواصل؛ إذ يقوم مبدأ التّواصل على تقسيم العلامة أيّاً كانت ماهيّتها (لسانيّة أو غير لسانيّة) إلى ثلاثة عناصر: الدّال والمدلول والقصد، فلكلّ علامة امتدادها بين هذه العناصر ويمكن أن نفهم عبر وسائط مختلفة كاللّغة أو الصّورة أو الصّوت أو الرّائحة أو غيرها. فمثلاً نستطيع أن نتعرّف إلى نوع من الورود إمّا بذكر اسمه لغويّاً، وإما من خلال رائحته المميّزة أو بتقديم صورته أو برسمه أو غير ذلك من أشكال الدّلالة، ويركّز أصحاب هذا الاتّجاه (مثل مونان ومارتينيه وغيرهما) في بحوثهم على الوظيفة التّواصليَّة أو الاتّصاليّة المضمرة في أيّ علاقة دلاليّة، شريطة أن يحمل هذا التّواصل رغبة القصديَّة بهدف التّأثير في المرسل إليه، ممّا يعني أنّ

المعنى رهين بتعيين مقاصد المتكلّمين والكشف عنها[37]، ومهما كانت اللّغة المستخدمة ذات تأثير، لا بدّ أن تبقى رهينة المعنى، فلا فائدة منها دون تحقيق المعنى الّتي تهدف إلى إيصاله للمرسل إليه.

"فالعلامة اللّغويَّة ليست سوى جزء بسيط من مجموع العلامات المختلفة والمتنوّعة الّتي تقترب منها السّيمولوجيا، فثمّة أنماط أخرى من العلامات الّتي تكوّن أنظمة من التّواصل، مثل: العلامات الشّميَّة والعلامات اللّمسيّة والذّوقيَّة الإشاريّة أو الإيمائيّة وكذلك العلامات الأيقونيّة، والعلامات السّمعيّة والسّمعيّة – البصريّة"[38]. وهذه العلامات يصدرها الجسد، فهو الجزء المكمّل لذلك الجزء البسيط الّذي يكوّن نظام التّواصل.

"والعلامة نوعان: لسانيّ مجاله في اللّغة، وغير لسانيّ يظهر في الشّمّ والذّوق واللّمس والإيماء والصّوت، واللّباس والطّعام وإشارات المرور والطّرق وأحوال الطّقس والأنظمة العسكريّة وفي الآلة أيضاً"[39].

"وقد أكّد "دي سوسير" على وجود نظام من العلامات غير اللّسانيّة، في حين يرى "شارل" إن الكون شبكة غير محدودة من العلامات، فكلّ شيء يستقلّ كعلامة ويدلُّ باعتباره علامة ويدرك بصفته علامة"[40].

"ولم يكن "دي سوسير" أبو الألسنيّة الحديثة، يتكلّم على التّواصل. وإنَّما غالباً ما تكلّم على "حلقة الكلام" وذلك بفرض وجود شخصين "أ" و"ب" يقوم التّواصل بينهما تبعاً للرّسم البيانيّ الآتي:

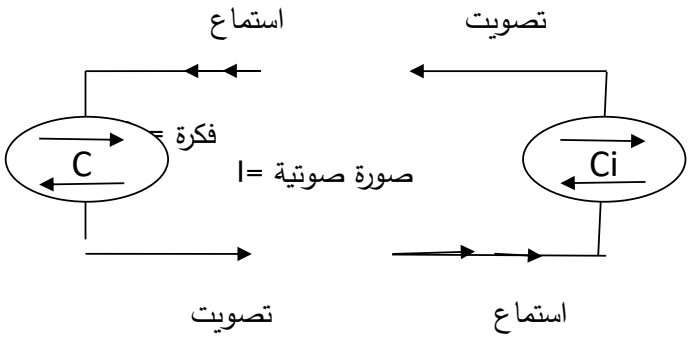

والفكرة هنا هي "المدلول". أمّا الصّورة الصّوتيّة فهي "الدّال". وقد كان هذا المفهوم أساساً قامت عليه البنيويّة الألسنيّة، ومن ثمَّ مدرسة براغ الّتي ظهر معها مفهوم التّواصل بشكله المنظّم"[41].

فالكلام وحده لا يعدُّ طريقاً للتّواصل بين أفراد البشر، وإنَّما يقدّم الجسد سلسلة من الإشارات التّواصليّة الّتي تفصح عمّا يريد الإنسان. "فلغة جسدك لهي أكثر بلاغة من أيّ كلام! أبسط وأصغر إيماءة، كيفيّة الوقوف، الاتّصال بالعين، معدّل الطّاقة وطريقة التّصرفات تبعث الرّسائل الّتي تريد إيصالها إلى

الأشخاص. وكلّما استطعت أن تتحكّم بهذه اللّغة، حصلت على ثقة بالنّفس وبذلك فإنّك تفرض احترامك وآراءك على الآخرين"[42].

وهذا ينطبق مع تأكيدات "دي سوسير" على نظام العلامات التّواصليَّة، فمعرفة أسرار لغة الجسد تهب الإنسان القدرة على معرفة واكتشاف ما يجول في خواطر النّاس وعقولهم جميعاً، وتسهّل عمليّة الإدراك بينهم، فإذا كان الكلام مرتبطاً بالحروف والرّموز الخطيّة، فهذا لا يكفي؛ إذ لابدَّ من تعلّق الألفاظ بلغة الجسد، فحين يتحدّث أحدنا لا يقف بلا حراك، وإنَّما تصحب كلماته حركات متعدّدة من بعض أعضاء جسده أو كلّها، وأحياناً نقوم بحركات دون أن ننطق بأيّ حرف، فتكون مفهومة بالنّسبة إلى المتلقي، فالحركة الجسديّة تعدّ نظاماً مرئياً ملازماً للنّظام الصّوتيّ السّمعيّ؛ لذلك انبثقت قواعد هذا العلم الجديد ومعالمه الّذي أطلق عليه اسم"الحركة الجسديَّة" أو "الكينات".

مبتكر علم الحركة الجسديَّة:

يعود مبحث هذا العلم المنظَّم في الحركة والإيماءة، إلى **دارون** الّذي يعدّ من أشهر علماء علم الأحياء في إنكلترا؛ إذ يقول: "إنّ الإنسان كائن ذو علاقات وثيقة بزملائه من البشر، وغيره من الكائنات الحيّة،... فلم يعد علم النفس مرتبطاً فقط بالفلسفة (كما هو دائماً) ولا بالفيسيولوجيا (كما أصبح)، وإنما كذلك بالدراسة العامة للحياة في كافّة مظاهرها المتفرّعة الحيوانيّة منها والإنسانيّة "[43]، "ولقد كان أوّل من اهتمّ بالحركة الجسديّة في أمريكا هم فرانز بواس Franz Boa وإدوارد سابير Edward Sapir ووستون لابار Weston Labarre؛ إذ إنّهم أعلنوا أنّ الحركات الجسديَّة ما هي إلا شفرة يمكن حلّ رموزها"[44]، لكن الباحث **راي بردوستل** (Ray–l.Birdwhistell) هو الّذي أقام ذلك الميدان كموضوع علميّ أو كعلم قائم بذاته"[45]. فهو مبتكر علم الحركة الجسدية أو علم الكينات، وكبير الباحثين بمعهد إيسترن بنسلفانيا للتحليل النّفسيّ، ومدير مشروع أبحاث علم الاتِّصال... وفي تقديره أنّ نسبة الكلام في التّعبير عن المعاني تتراوح بين 30 إلى 35% فقط".[46]

وهذا يدلّ على أنّ البحث الجديّ المتّصل في علم الحركة الجسديَّة لم يبدأ إلاّ على يده، وذلك حين نشر كتابه بعنوان "مدخل إلى علم الكينات" عام 1952م، "ويرجع عهد اهتمامه بالحركة الجسديَّة إلى الدّراسات الميدانيّة الّتي قام بها على الهنود الكوتينيين Kutenai الّذين يعيشون في كندا الغربيّة، وذلك في عام 1946م؛ إذ إنّه لاحظ حين كان يعيش بين هؤلاء الهنود أنّ منظرهم حين كانوا يتحدّثون الإنكليزيّة

يختلف تمام الاختلاف عنه وهم يتحدّثون باللّغة الكوتينيّة، فهم حين كانوا يتحدّثون بالإنكليزيّة يستخدمون حركات جسديَّة مغايرة وكذلك تختلف تعبيرات الوجه، وكأنّ لجسد الواحد منهم لغتين هما اللّغة الإنكليزيّة الأجنبيّة ولغته القوميّة.

وقد عرّف "**بردوستل**" علمه الجديد والّذي أسماه علم الكينات بأنّه "علم يختصّ بوصف أوضاع الجسد وحركاته، تلك الأوضاع والحركات الّتي تحدث وفق نمط معيّن، كما أنّها تحدث نتيجة للتّعلم، ويحلّلها جميعًا إلى خصائصها. وهو يرى أنّ الحركة الجسديَّة تمتدّ جذورها إلى عمق بعيد في المجتمع الّذي يعيش الفرد فيه، وترتبط كلّ الارتباط بثقافة ذلك المجتمع"[47].

"وقد وجد "**ألبرت مهرابيان**" بأنَّ التّأثير الكلّيّ للرّسالة ينقسم إلى حوالي 7% ناطق (كلمات فقط) و 38% صوتيّ (أي متعلّقاً بنغمة الصّوت، ارتفاعه وانخفاضه، أصوات أخرى) و55% صامت.

ولا يخفى على الباحث تأثيرات فلسفة هوسرل الظّاهراتيَّة في سيمياء التّواصل من حيث تحكّم القصديَّة الواعية بين المرسل والمرسل إليه عبر العلاقة المقصودة في عمليّة التّواصل، فليس ثمّة علاقة بمنأى عن القصد، بل إنَّ القصد هو السّبب الرّئيس في عمليّة خلق العلامة الهادفة إلى التّواصل.

وقد أوصلت دراسات اللّغويّ فيرديناند دي سوسير هؤلاء العلماء إلى ابتكار ووضع خطوط أوليّة لهذا العلم حين قال: "فعلم اللّغة هو جزء من علم الإشارات العام والقواعد الّتي يكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللّغة، وقال أيضاً: إنَّني أرى أنّ مسألة اللّغة هي في جوهرها مسألة علم الإشارات وجميع تطوّرات المسألة تستقي أهمّيتها من هذه الحقيقة الأساسيّة، فإذا أردنا أن ندرك الطّبيعة الحقيقيّة للّغة فعلينا أن نفهم ارتباطها بالأنظمة الأخرى للإشارات"[48].

لقد منح الجسد لعلماء اللّغة مجالاً واسعاً للدّراسة، فتناولوه جيلاً بعد آخر، فالتقت نتائج أبحاثهم بالرّغم من بعدهم الزّمانيّ والمكانيّ عن بعض.

مبادئ علم الحركة الجسدية:

"لقد اتّبع "**بردوستل**" في تحليله للحركة الجسدية للإنسان الأمريكيّ، النّموذج المتّبع في تحليل اللّغة، أي أنّه بدأ بعزل الوحدة الحركيّة الأساسيَّة الّتي أطلق عليها اسم "كينيم" وهي تقابل الوحدة الصّوتيَّة أو الفونيم في علم اللّغة، ثمَّ بعزل الوحدة الحركيّة ذات المعنى، وقد أطلق عليها اسم "كينومورفيم" وتقابل

الوحدة الصّرفيَّة أو المورفيم في علم اللّغة. وكان من نتائج ذلك التّحليل أنَّه تمكّن من عزل أربع وثلاثين حركة جسديَّة، هي الّتي تكوّن الحركة الجسديَّة للإنسان الأمريكيّ"[49].

أبجدية علم الحركة الجسدية:

"لمَّا كانت الحركات الجسديَّة أو الكينات تعدُّ نظاماً قائماً بذاته، مثلها في ذلك مثل اللّغة، كان من الضّروريّ أن توضع لها أبجديّة ذات رموز خاصّة بها، وذلك ما فعله الدّكتور "بردوستل". فقد ابتكر أبجديّة من الرّسوم أو الرّموز يرمز كل رسم فيها إلى حركة جسديّة واحدة أو "كين"، بحيث تتضمّن الأبجديّة عدداً من الرّموز بقدر عدد الحركات الجسديّة، فهي بذلك تقابل الأبجديّة الصّوتيّة في علم أصوات اللّغة. وتشمل الأبجديّة كافّة الحركات الّتي تصدر عن جميع أجزاء الجسد البشريّ من قمة الرّأس إلى أخمص القدم، مثل سلوك العين من شخوص أو غمز أو دوران، وأوضاع الفم من وضع محايد إلى ابتسامة طبيعيّة أو مغتصبة أو مصطنعة أو صفراء، وكذلك حركات الوجه بأنواعها، فمثلاً نجد أنّ الشّكل البيضاويّ المحاط بشرطتين على الجانبين يمثّل وجهاً خالياً من التّعبير، وأنّ الشّكل البيضاويّ الّذي توجد على يساره شرطة يرمز إلى الغمز بإحدى العينين، ولعلّ الرموز الآتية توضح جزءاً من أبجدية الوجه:

وجه خال من التعبير	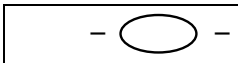
رفع الحاجب	
خفض الحاجب	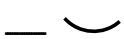
رفع الحاجبين	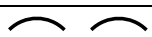
اتساع الحدقتين	
الغمز بالعين	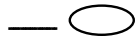
الشخوص	
الإبصار من جنب	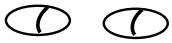

فالأبجديّة الحركيّة تحمل دلالة، فهي تشبه الوحدات الصّرفيّة من حيث الدّلالة والوحدات الصّوتيّة من حيث الرّمز، وقد أضاف العالم الإنكليزيّ فيرث "Firth" إلى العنصر الصّوتي والصّرفي الّذي يقابل الحركة الجسديَّة عنصراً جديداً، وهو سياق الحال، ويراه مفيداً في تحليل الحدث اللّغويّ، ومنعكساً على المستويات السّابقة[50].

الخاتمة:

وبعد هذ العرض نقول: إنّ لغة الجسد تحتلّ المرتبة الأولى في عملية التّواصل، وتوازي اللّغة المنطوقة في مبادئها وتشاركها في تحقيق المعاني المرجوة، وتعبّر عن الحالة النّفسيّة والشّعوريّة عند المتكلّم، لذا تحتاج إلى الذّكاء الشّعوريّ لفكّ شيفرات معظم هذه الحركات ودلالاتها، ليس على المستوى الإنسانيّ فحسب، بل يتجاوزه إلى مستوى التّواصل بين الحيوانات، فالنّحل يتواصل بإشارات الرّقص فيما بينه، وكذلك يفعل النّمل، أمّا الإنسان فهو مفضّل عن غيره بالعقل؛ لذا يرتقي بإشاراته؛ لتؤلّف هذه الإشارات أنظمة ذات قواعد وقوانين تتزامن مع الكلمات المنطوقة، لتعبّر عمّا يريد المتكلّم الإفصاح عنه، وتشكيل منظومة تواصليّة مفهومة للمتلقي.

الحواشي:

[1] عزام، محمد، النقد والدلالة، نحو تحليل سيميائي للأدب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، د.ط، 1996، ص8.

[2] شاش، محمد، تقنيات التعليم(1)، منشورات جامعة تشرين، 2008، ص169.

[3] ينظر: عزام، محمد، النقد، والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب، ص19.

[4] بيز، ألن: لغة الجسم: كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم، ص4.

[5] حقي، إحسان: علم الفراسة، أسرار الخلق وإبداعها، دار النفائس، لبنان، بيروت، ط2، 1983.

[6] ينظر: زيدان ، جرجي: علم الفراسة الحديث، دار الهلال، القاهرة، ط4، 1923، ص9.

[7] الرازي، فخر الدين: الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح، تحق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة. ص 12.

[8] زيدان، جرجي: علم الفراسة الحديث، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987م، ص5.

[9] حسام الدين، د. كريم زكي، الإشارات الجسميّة، ص 33-34.

[10] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.

[11] المصدر السابق، ج1، ص81.

[12] المصدر السابق، ج1، ص78.

[13] المصدر السابق، ج1، ص77.

[14] الجاحظ: الحيوان، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، د.ط، 1982م، ج1، ص29.

[15] الحموي, ياقوت: معجم الأدباء, إرشاد الأديب إلى معرفة الأريب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج3، ص373.

[16] يعقوب، الدكتور إميل بديع، موسوعة أمثال العرب، دار الجيل، بيروت، ط1، 1995م، ج4، ص56.

[17] القيرواني، ابن رشيق: العمدة، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، ط3، 1963، ج1، ص309.

[18] ينظر: الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1954م، ص102.

[19] ينظر: المصدر السابق، ص178.

[20] ينظر: المصدر السابق، ص 179.

[21] ينظر: المصدر السابق، ص 173.

[22] ينظر: المصدر السابق، ص 174.

[23] ينظر: المصدر السابق، ص 174.

[24] ينظر: المصدر السابق، ص 188.

[25] بيز، ألن: لغة الجسم: كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم، ص 15.

[26] بنكراد، سعيد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، ص 215.

[27] حسام الدين، د. كريم زكي، الإشارات الجسميَّة ((دراسة لغويَّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل))، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1991م، ص 23-24.

*هكذا وردت، والصواب "تعدّ".

[28] المرجع السابق، ص 26.

[29] المرجع السابق، ص31.

[30] بنكراد، سعيد : السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، اللاذقيَّة، ط2، 2005م، ص191.

*هكذا وردت، والصواب "المهم".

[31] حسام الدين، د. كريم زكي، الإشارات الجسميَّة، ص 145.

[32] بنكراد، سعيد : السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، ص 210.

[33] ريمان، تونيا: قوّة لغة الجسد، تر: رفيف غدار، مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة، الدّار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، ص 31.

[34] شحرور، ليلى: أسرار لغة الجسد، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008م، ص 11.

[35] محجوب، د. فاطمة: دراسات في علم اللغة، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، د.ت، ص /م/.

[36] بنكراد، سعيد : السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، ص 193.

[37] ينظر: إبراهيم وآخرون، عبد الله، السيميائية: الاتجاهات المعاصرة ووظائف العلامات، ضمن كتاب معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، البنيوية، السيميائية، التفكيك، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء،ج1، 1990م، ص84.

[38] بركات، د. وائل: السيمولوجيا بقراءة رولان بارت، مجلة جامعة دمشق- المجلد 18- العدد الثاني، 2002م، ص62.

[39] المرجع السابق، ص57.

[40] بلية، بغداد أحمد: سيميائيات الصورة، مقالات حول علاقة التلقي بالمسرح والسينما والتلفزيون- دار الأديب، وهران، ص77.

[41] بركة، فاطمة الطبال: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص، د.ط، د.ت، ص 64.

[42] شحرور، ليلى: أسرار لغة الجسد، ص 17.

[43] فلوجل، ج.ل: علم النفس في مئة عام، ترجمة لطفي فطيم، مراجعة د. السيد محمد خيري، دار الطليعة، لبنان، بيروت، ط4، 1988، ص86.

[44]. محجوب، فاطمة: دراسات في علم اللّغة، ص 167.

[45]. شحرور، ليلى: أسرار لغة الجسد، ص12-13.

[46] محجوب، فاطمة: دراسات في علم اللّغة، ص 161.

[47] المرجع السابق، ص 167.

[48] دي سوسير، فريدناند: علم اللّغة العام، ترجمة: د. يوئيل يوسف، جامعة الموصل، 1988م، ص 35.

[49] محجوب، فاطمة: دراسات في علم اللّغة، ص 167-168.

* اللهجة: قيود صوتية تلحظ عند أداء الألفاظ.

50 ينظر: الرديني، د. محمد علي عبد الكريم، فصول في علم اللغة العام، ص 125.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم وآخرون، عبد الله، السيميائية: **الاتجاهات المعاصرة ووظائف العلامات**، ضمن كتاب معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، البنيوية، السيميائية، التفكيك، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، 1990م.
- بركة، فاطمة الطبال: **النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون**، دراسة ونصوص، د.ط، د.ت.
- بلية، بغداد أحمد: **سيميائيات الصورة**، مقالات حول علاقة التلقي بالمسرح والسينما والتلفزيون- دار الأديب، وهران.
- بنكراد، سعيد : **السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها**، دار الحوار، اللاذقيَّة، ط2، 2005م.
- بيز، ألن: **لغة الجسم: كيف تقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم**، تر: هاني غازي، عمان، ط2، 1992م.
- الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1954م.
- الجاحظ: **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل, بيروت، د.ط، د.ت.

  البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.
- الجاحظ: الحيوان، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، د.ط، 1982م، ج1.
- حسام الدين، د. كريم زكي: **الإشارات الجسميَّة ((دراسة لغويَّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل))**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1991م.
- حقي، إحسان: علم الفراسة، أسرار الخلق وإبداعها، دار النفائس، لبنان، بيروت، ط2، 1983.
- الحموي, ياقوت: معجم الأدباء, إرشاد الأديب إلى معرفة الأريب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج3.
- دي سوسير، فريدناند: **علم اللّغة العام**، ترجمة: د. يوئيل يوسف، جامعة الموصل، 1988م.
- الرازي، فخر الدين: الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح، تحق: مصطفى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة.

- الرديني، د. محمد علي عبد الكريم: **فصولٌ في علم اللغة العام**، بيروت، لبنان، عالم الكتب، ط1، 1423- 2002م.

- ريمان، تونيا: **قوّة لغة الجسد**، تر: رفيف غدار، مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة، الدّار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009.

- زيدان ، جرجي: علم الفراسة الحديث، دار الهلال، القاهرة، ط4، 1923.

- شاش، محمد: **تقنيات التعليم(1)**، منشورات جامعة تشرين، 2008م.

- شحرور، ليلى: **أسرار لغة الجسد**، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008م.

- عزام، محمد: **النقد والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، د.ط، 1996م.

- فلوجل، ج، ل: **علم النفس في مائة عام**، ترجمة لطفي فطيم، مراجعة د. السيد محمد خيري، دار الطليعة، لبنان، بيروت، ط4، 1988م.

- القيرواني، ابن رشيق: العمدة، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، ط3، 1963، ج1.

- محجوب، د. فاطمة: **دراسات في علم اللغة**، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، د.ت.

- يعقوب، الدكتور إميل بديع، موسوعة أمثال العرب، دار الجيل، بيروت، ط1 ،1995م، ج4.

- **الدوريات:**

- بركات، د. وائل: **السيميولوجيا بقراءة رولان بارت**، مجلة جامعة دمشق- المجلد 18- العدد الثاني، 2002م.